الفصل السادس عشر

الأسرة الخامسة

كان من جراء انتشار عبادة الشمس في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ازدياد نفوذ الكهنة في بلدة عين شمس، وقد كان الإله «رع» في بادئ الأمر الإله المحلي لهذه البلدة، ويعرف باسم الإله «أتوم»، وقد جاء في إحدى الخرافات التي وصلت إلينا عن عهد «خوفو» أن أحد أفراد الأسرة المالكة قد تزوج من إحدى بنات كهنة «رع»، يضاف إلى ذلك أن «منكاورع» قد أعلن في أحد ألقابه الرسمية أنه «ابن الشمس» مباشرة، وقد أصبح لقب «ابن الشمس» من الألقاب الرسمية التي يلقب بها الفرعون.

ولما كان آخر ملوك الأسرة الرابعة قد توفي دون أن يكون له وارث في الملك من الذكور قامت «خنت كاوس» بنت «منكاورع» وادعت لنفسها الملك بصفتها بنت ملك؛ أي يجري في عروقها الدم الملكي، والظاهر أنها تزوجت من أحد علية القوم أو من أحد أفراد الأسرة الذين لهم حق في وراثة الملك، ومن المحتمل أنه كاهن عين شمس، فقامت بنفسها بأعباء الملك مع زوجها الذي لم يذكر اسمه على الآثار، ولكنها رزقت ولدًا كان الوارث للعرش الفرعوني، وهذا الفرعون هو «وسركاف».

وإذا صدقنا الرأي القائل بأن «خنت كاوس» هي أم «وسركاف»، فلا بد أن يكون اللذان خلفاه على عرش الملك هما أخواه «سحورع» و«نفر إر كا رع»، والظاهر أنهما تمسكا بعبادة الشمس كما يدل على ذلك تركيب اسميهما.

ولا أدل على تمجيد الشمس وعبادتها في هذا العصر من ظهور مبان خاصة بنيت لتكون هياكل للشمس؛ إذ كان يوجد بجوار الهرم الذي كان مخصصًا لدفن جثة الفرعون معابد خاصة أطلق عليها علماء الآثار الآن «معابد الشمس»، وقد كان كل منها يحتوي في بهوه على مسلة، وعلى جدران المعبد قد نقشت قوارب كبيرة تمثل القارب الذي تسبح فيه الشمس نهارًا من الشرق إلى الغرب والآخر الذي تسبح فيه من الغرب إلى الشرق.

يضاف إلى ذلك أن القبر الذي كان يدفن فيه الملك كان على شكل حجر يعرف عند المصريين بلفظة «بن بن»، وهو يشبه الشكل الهرمي. وهذا الشكل الهندسي الخاص كان مقدسًا في معبد عين شمس ويعتبر رمز الإله «رع»، ومن أجل هذا السب اتخذه الملوك شكلًا لمقابرهم، وسنفرد فصلًا خاصًّا للكلام عن عبادة «رع» في الأسرة الخامسة، وهؤلاء الملوك الثلاثة المذكورون يضاف إليهم الملك «نوسر رع» هم الذين أقاموا معابد الشمس وبنوا الأهرام التي بجوارها في «أبي صير» الواقعة على مقربة من سقارة، وعلى جدران هذه المعابد نشاهد لأول مرة النحت البارز، وكذلك نشاهد لأول مرة عمدًا مقامة تحمل أسقفًا وبوابات مصنوعة من الجرانيت الوردي وتيجان هذه العمد مزينة بأشكال زهر البردي والبشنين، وهذه الأعمدة الجديدة تختلف اختلافًا تامًّا عن الأعمدة ذات القنوات التي أقيمت في سقارة في عهد الأسرة الثالثة، وعن الأعمدة الضخمة المربعة التي أقيمت في معبد «خفرع» في الجيزة، وقد بقي شكل الأعمدة ذات التيجان متبعًا في مصر إلى أواخر عهد الفن المصري ولم يدخل عليها إلا بعض تغيير طفيف في الحلية.

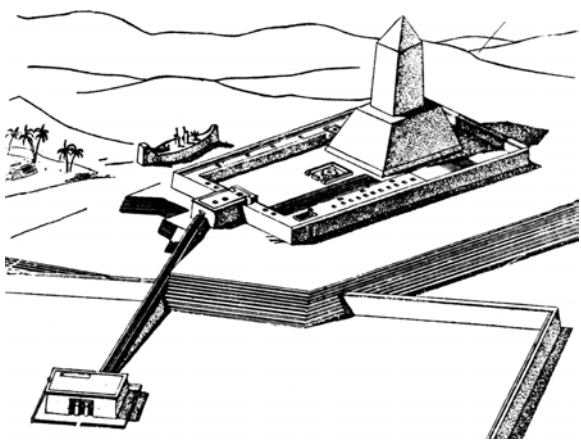

صورة كاملة لما كان عليه أحد المعابد الشمسية.

وقد شاهدنا كذلك لأول مرة من الوجهة الدينية أن الآلهة المصرية رسمت بأشكال لم تتغير حتى انقرضت الوثنية من وادي النيل؛ أي أصبح الإله يمثل بجسم إنسان ورأس حيوان أو طائر حسب أصله.

(١) الملك وسركاف

ونعود الآن إلى ذكر هؤلاء الملوك وأعمالهم فنجد أننا إلى الآن لا نعلم إلا شيئًا يسيرًا عن الملك «وسركاف»، خلافًا لما ذكر في ورقة «وستكار» التي كتبت بعد نحو ألف سنة من موته، وقد عثر منذ بضع سنوات على رأس ضخمة لتمثال من الجرانيت الوردي في سقارة بالقرب من هرم هذا الملك، وهذا الرأس يعتبر المثل الوحيد الذي وجد لتمثال ضخم أكبر من الحجم الطبيعي بكثير في الدولة القديمة، وكان قبل توليته عرش الملك كاهنًا أعلى لبلدة عين شمس كما جاء في ورقة «وستكار» والظاهر أن مدة حكمه لم تدم طويلًا، ومن الجائز أنه لم يحكم أكثر من سبعة أعوام، ولم يترك وراءه ما يستحق الذكر من الأعمال الجليلة في تاريخ البلاد، وقد جاء في نقوش حجر «بلرم» أنه وهب أراضي من أملاكه الخاصة إلى معبد الإله «رع»، وأمده بالقرابين في أيام الأعياد الخاصة بـ «أرواح عين شمس». هذا إلى أنه قد بنى محرابًا في معبد «حور» بمدينة «بوتو» (تل الفراعين)، وخصص لعبادة البقرة «حتحور» ضِياعًا في الدلتا باعتبارها أم الإله «رع»، وبنى معبدًا للإله «سبا» (الصقر الناشر جناحيه) وأوقف له ضيعة صغيرة، وعلى وجه عام أظهر العناية اللازمة نحو الآلهة، ولاسيما أنه ينتسب إلى طائفة الكهنوت، وقد عثر على خاتم أسطواني الشكل محفوظ الآن في المتحف البريطاني منقوش عليه لقب لهذا الملك ينم عن ميوله الدينية «محبوب الآلهة»، وأقام هذا الملك مثل أخلافه معبدًا للشمس يحتمل أنه كان في «أبي صير» بالقرب من سقارة، غير أنه اختفى نهائيًّا مثل هرمه ولا يبعد أنه استعمل فيما بعد موردًا ومحجرًا لمباني العصور التي تلت، واسم هذا المعبد «نخن رع» (بلاط قربان رع)، وقد عثر على إناء من المرمر الأبيض منقوش عليه اسم معبده في «سريجو» Cirego مما يدل على أنه كانت هناك معاملات من نوع ما بين مصر وجزر بحر إيجا في هذه الفترة.

وعثر في بلدة طهنة على مقبرة لأحد عظماء مصر في عهد هذا الفرعون اسمه «نكعنخ» ويحمل لقب مدير القصر، وحاكم المدن الجديدة والكاهن الأعظم للإلهة «حتحور» وسمير الملك، ولا شك في أن «وسركاف» كان محتاجًا في هذا الظرف الخاص إلى أن يستميل إليه عظماء بلاده، ولذلك منح «نكعنخ» وظيفتين عظيمتين؛ الأولى أنه نصبه كاهنًا للإلهة «حتحور» في نفس بلدته، وكذلك عينه كاهنًا مشرفًا على أوقاف «خنوكا» أحد عظماء البلاد وأشرافها في عهد «منكاورع» وقد خصص لذلك أراضي شاسعة تبلغ مساحتها

نحو ١٢٠ ستاتا،[١] ومما يذكر أن «نكعنخ» قد كان رب أسرة كبيرة يبلغ عدد أفرادها ١٣ شخصًا، وكتب وصيته بتقسيم هذه المنح الملكية بينهم على أن يقوموا بالواجبات التي تتطلبها هاتان الوظيفتان، وسنرى أهمية هذه الوصية عند الكلام على الأسرة في عهد الأسرة الخامسة، وبعد تقسيم الضِّياع بين نسله نقش على قبره ما يأتي:

> لقد كان جلالة الملك «وسركاف» الذي حباني بأن أكون كاهنًا للإلهة «حتحور» سيدة «قوص»، وكان كل ما يجبى للمعبد كنت أنا الكاهن «الذي يتسلم» كل شيء يدخل المعبد، والآن فإن أفراد أسرتي سيكونون من بعدي كهنة للإلهة «حتحور» سيدة «قوص» كما كنت، وإني سأذهب إلى الغرب الجميل رجلًا محترمًا تاركًا كل هذا في ذمة خَلَفِي من بعدي.

(٢) الملك سحورع

خلف «وسركاف» على عرش الملك «سحورع»، ولا نعرف نسبته إليه بالضبط، ويقال إنه أخوه، ويعد من الملوك الحربيين؛ إذ عُثر له في شبه جزيرة سينا على لوحة مثل فيها مرتديًا تاج الوجه القبلي ويضرب الآسيويين، وكذلك وُجد له نقش باسمه في «توماس» ببلاد النوبة مما يدل على أن حدود بلاده لم تكن تنتهي عند الشلال الأول، هذا إلى أن النقوش التي وجدت له في معبد الشمس الذي أقامه «بأبي صير» تدل على أنه أرسل أسطولًا إلى ساحل «فينيقيا»، وفي أواخر حكمه ذكر لنا حجر بلرم أنه قام بحمله إلى بلاد بنت عادت منها حاملة ٨٠٠٠٠ مكيال من الروائح العطرية و٦٠٠٠ مكيال من الذهب، ٢٦٠٠ عصًا ربما كانت من الأبنوس.

وأهم عمل قام به في داخل البلاد هو بناء معبد الشمس العظيم في «أبي صير» بالقرب من منف، ونموذج هذا المعبد كان المميز لمباني معابد الملوك في الأسرة الخامسة، وكان مقامًا بالقرب من هرم الفرعون، وزين بأشكال العمد الجديدة التي سبق الكلام عنها.

---

[١] كل ستات واحد يساوي $\frac{٢}{٣}$ فدان تقريبًا.

ومن بين النقوش التي لها قيمة اجتماعية في عهد هذا الملك لوحة جنازية لرئيس أطباء الملك «ني عنخ سخمت»، وقبره في سقارة، ورغم أنه قبر متواضع إلا أنه زين بباب وهمي من حجر طرة الأبيض، وقد ذكر الطبيب على هذا الباب الجميل ما يأتي معتزًّا:

> رئيس الأطباء «ني عنخ سخمت» يقول في حضرة جلالته: ليت شخصك المحبوب من «رع» يأمر بأن أمنح بابًا وهميًّا من الحجر لقبري هذا الذي في الجبانة، وقد أمر جلالته بأن يؤتى له ببابين من حجر طرة، وأن يوضعا في قاعة مجلس البيت المسمى «سحورع يضيء بالتيجان»، وأن يعطيا لكاهني منف العظيمين وصناع الجبانة، وأن يقوم العمل لإعدادهما في حضرة جلالة الملك نفسه، وقد قام العمل فعلًا كل يوم، وكان يفحص ما أنجز يوميًّا في البلاط، وبعد ذلك لوَّنهما جلالته ثم صقلهما باللون الأزرق.

وقال جلالته لرئيس الأطباء «ني عنخ سخمت»: ما دام أنفي سليمًا والإلهة تحبني فإني أتمنى لك أن تذهب إلى الجبانة بعد عمر طويل مقربًا، وقد دعوت للملك كثيرًا وصليت لكل إله من أجل «سحورع»؛ وذلك لأنه يعرف كل رغبات أتباعه. على أن كل شيء يتفوه به جلالته ينفذ؛ لأن الإله وهبه معرفة الأشياء التي في باطن الإنسان، ولأنه مبجل أكثر من أي إله، فإذا كنت تحب «رع» فعليك أن تدعو كل إله من أجل «سحورع» الذي فعل ذلك لي، ولقد كنت مقربًا عنده، هذا فضلًا عن أني لم أفعل أي شيء يضر بإنسانٍ ما.

ولا غرابة في أن نرى رئيس الأطباء يدون مثل هذا النقش على باب وهمي أهداه إليه الفرعون اعترافًا منه بالجميل، ليدلل أوَّلًا على حظوته عند الملك، وثانيًا لأن تلك المحاجر كانت خاصة بالملوك، ولم يكن في مقدور الأفراد أن يقوموا بقطعها ونقلها منها؛ وذلك لكثرة التكاليف، فكان الفرعون هو الذي يهب من يشاء من رجال دولته القطع اللازمة لإقامة مقابرهم، وقد بقيت محاجر طرة وقفًا على الملوك وأسرهم ومن هم في ركابهم فقط، وربما كان «اسم الحجر السلطاني» الذي يطلق على أحجار طرة حتى الآن قد جاءنا من عهد الفراعنة، والظاهر أن الفرعون عندما كان يهب عظماء دولته حجارة من هذه البقعة أو غيرها من المحاجر كان يأمر بكتابة اسم صاحب الأحجار بالمداد الأحمر بالخط الهيراطيقي على كل حجر بقطع ثم توزع على أصحابها في الجبانة، وقد عثر على مقابر فيها أحجار قطعت من طرة، منقوش على ظهرها اسم صاحب المقبرة، فقد وجدنا

مثلًا في جبانة الجيزة أحجارًا باسم «وب أم نفرت» صهر الملك «نوسر رع» وكذلك وجد اسم «رع ور» على كثير من أحجار مقبرته بالجيزة أيضًا، وهو من عهد الملك «نفر إر كا رع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة وهكذا.

وكذلك كانت أحجار معابد الملوك وأهرامهم تُعلَّم بالمداد الأحمر باسم الفرعون وباسم المكان الذي كانت ستوضع فيه، وأحيانًا مقاييسها، كما نشاهد بين الأحجار التي عثر عليها بجوار الهرم الأكبر وأهرام سقارة نفسها.

ولا يبعد أن تكون المناظر الحربية التي بين الآسيويين والمصريين التي على مقبرة «إنتا» في دشاشة ترجع إلى عهد ذلك الملك الحربي. إذ في هذه النقوش نشاهد المصريين يغزون مكانًا في آسيا يسمى «نديا» (لا يعرف موقعه)، والمناظر توضح لنا تمامًا أطوار الحرب المختلفة في صور ساذجة، فنرى أوَّلًا المصريين يحاربون الآسيويين محاربة القرن للقرن والرجل للرجل ثم ينتهي الأمر بانتصار المصريين، وعلى أثر ذلك يفر الآسيويون ويحتمون بقلعة «نديا» فيحاصر المصريون محاصرة فنية منظمة ثم يتغلبون عليها فيثقبون جدرانها بوساطة خوابير مدببة من الخشب. ثم يستعملون سلاليم طويلة للهجوم النهائي على القلعة، وبعد ذلك يقبل المنهزمون على رئيسهم فيخبرونه بمصير القلعة فيشد شعر رأسه يأسًا، وفي أثناء ذلك نشاهد النساء يحملن القتلى ويسعفن الجرحى، وبعد النصر النهائي نرى المصريين يقودون عددًا كثيرًا من الأسرى رجالًا ونساءً وأطفالًا. ويحتمل جدًّا أن تكون هذه الجملة هي المذكورة على جدران المعبد الجنازي لهذا الملك في أبي صير ومما يحملنا على هذا الظن أن حملة الملك هذه ضد آسيا لم توصف بالتفصيل ولم يمثل منها على جدران المعبد غير خروجها من مصر ورجوع الجيش منتصرًا؛ إذ نجد الفرعون على رسوم المعبد يتقبل غنائم الآسيويين وفي حضرته شخصيات عظيمة من رجال بلاطه كل ثلاثة يكونون جماعة، ومن بينهم جماعة من موظفي ضِياع القصر الملكي عددهم ثلاثة أيضًا، وكذلك نجد فصائل من الجنود كل فصيلة تحمل شعارًا خاصًّا مثل: «ما أجمل سحورع أمام الزينة»، ومثل: «ما أعظم حب سحورع».

(٣) الملك نفر إر كا رع «كاكاو»

تولى الملك بعد وفاة «سحورع» الملك «نفر إر كا رع»، ولم تُبْقِ لنا الأيام من هرمه ومعبده الذي أقامه لنفسه في أبي صير إلا بعض كتل منقوشة عليها ألقاب وأسماء بعض الموظفين المعاصرين له، واسم معبده «مقر رع المحبب»، واسم الهرم «نفر إر كا رع» ظاهر وتدل الآثار التي وجدت بعده على أنه كان ملكًا محببًا لدى رجال بلاطه، وأنه كان يُعنى عناية خاصة بالمحافظة على معابد أجداده، ويبذل الهبات للآلهة، وقد ذكر لنا حجر بلرم بعض هذه الهبات، ومنها هبة عظيمة أوقفت باسم التاسوع المقدس أطلق عليها اسم «نفر إر كا رع» المحبوب من التاسوع المقدس، وأوقاف أخرى لأرواح عين شمس سماها «نفر إر كا رع محبوب أرواح عين شمس»، وهذه الأوقاف كانت تحتوى على ٢٥١س» أرورا[٢] في المقاطعة ١٤ من الوجه البحري تحت إشراف كاهنين عظيمين من كهنة عين شمس، وكذلك قدم للإله «رع» مذبحًا وللإلهة «حتحور» مذبحًا و٢١٠ قرابين مقدسة و٢٠٣ قرابين من الخبز والنبيذ ... وفلاحين تابعين لهذه الآلهة، وقدم لها كذلك تمثالًا من الذهب المخلوط بالفضة. كل ذلك كان في السنة الأولى من حكمه، وقد قرب قربانًا أخرى، وأوقافًا غير أنه بكل أسف نجد الحجر هنا مكسورًا.

ومما سبق يمكننا أن نلاحظ أن اهتمام الفرعون كان عظيمًا بآلهة عين شمس وتاسوعها والإلهة «حتحور» مما يؤكد لنا تمامًا ميل هؤلاء الملوك إلى عبادة الشمس ومقرها بلدة عين شمس، يضاف إلى ذلك أن عبادة الفرعون في عهد الأسرة الخامسة كانت لها المكانة الأولى بعد الإله «رع»، فلم يكن يحتفل بها في معابد الملك فحسب، بل كان يحتفل بها كذلك في كل معابد الآلهة في طول البلاد وعرضها حيث كان يقدم — كما ذكرنا — موائد قربان أو مذابح للإله «رع» وللإلهة «حتحور» والملك معًا.

ولقد بلغ اهتمام هذا الفرعون بمعابد الآلهة أنه كان يصدر المراسيم لحكام جهات القطر بالمحافظة على حقوق المعابد، وما لها من ضروب الأعفاء من الأعمال، والميزات التي كانت تتمتع بها، ويعد هذا المرسوم أقدم وثيقة عثر عليها من هذا النوع إلى الآن وهو كما يأتي: «حور أوزير كا» و«نفر إر كا رع».

[٢] الأرورا: نحو ثلثي فدان تقريبًا، واللفظة المصرية هي «ستات» كما سبق ذكر ذلك.

مرسوم ملكي لرئيس الكهنة «حمور»:

إني لا أسمح لأي إنسان له السلطة أن يأخذ أي كاهن من الكهنة الذين في المقاطعة التي أنت فيها لأي عمل في المقاطعة تسخيرًا أكثر من العمل الذي يقوم به للإله شخصيًّا في المعبد الذي هو فيه، ويجب كذلك القيام بحسن المحافظة على المعابد بوساطة الكهنة القائمين فيها، ولا يفرض عملٌ ما تسخيرًا على حقلٍ ما من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة، ولا يؤخذ لأية سخرة كانت في المقاطعة فلاحون أيًّا كانوا من الذين في أي حقل من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة؛ وذلك لأنهم مُعْفَوْنَ لمدة الأبدية، وذلك طبقًا لمرسوم ملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري «نفر إر كا رع». ولا توجد أية وثيقة في هذا الموضوع في أية مصلحة.

وكل فرد من المقاطعة سيستولي على كهنة ممن في حقل الإله المكلفين به في هذه المقاطعة ويسخرهم في المقاطعة. يجب عليك أن توجهه إلى بيت زراعة المعبد حتى يشتغل في كل أعمال التسخير الخاصة بمصلحة الحرث هذه في هذا المعبد، وهكذا مع كل فلاح في حقل الإله.

وكل أمير من أمراء الجنوب أو كل موظف، أو قريب للملك أو رئيس شرطة يعمل ضد تعليمات هذا المرسوم الذي اتخذ لقلعة «حور»، وذلك بالتصرف في ممتلكات الإله أو في الرجال أو في الممتلكات الأخرى أيًّا كانت مما يتملكها، فإنه سيكون تحت طائلة أي تسخير من أعمال المقاطعة.

خُتم في حضرتي أنا الملك في الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم العاشر.

ورغم تعقيد هذا المرسوم فإننا نفهم منه جيدًا أن الفرعون كان يعمل على معافاة رجال الدين وفلاحيهم الذين في ضِياع المعبد من القيام بأي عمل آخر في المقاطعة مهما كان نوعه. وسنرى أن تعدد مثل هذا الإعفاء، واستقلال الكهنة بالأملاك التي كانت توقف على المعابد من الأسباب التي أدت إلى ضعف الفرعون فيما بعد وأدت إلى سقوط الدولة القديمة في النهاية.

ومن أهم مظاهر عصر هذا الفرعون العظماء الذين عاشوا في عهده، وكانوا معه على أحسن حال من الود والصفاء المتبادل مما جعله مضرب الأمثال عندهم في الرقة وحسن المعاملة، ونخص بالذكر من بينهم أوَّلًا «رع ور» الذي كشفت الجامعة المصرية

عن مقبرته عام سنة ١٩٢٩ بالقرب من أبي الهول من الجهة القبلية، وهذا القبر يعد أكبر مقبرة ظهرت في الدولة القديمة إلى الآن، وكان «رع ور» هذا يحمل من ألقاب الدولة ما لا يقل عن ثلاثين لقبًا، منها أنه كان الكاهن لإلهة الوجه القبلي، والكاهن لإلهة الوجه البحري، وأكبر كاهن في الدولة، والسمير الوحيد، ومدير القصر، ورئيس أسرار الملك، وكان له خدم وموظفون بنوا قبورهم داخل مقبرته أو حولها. أهمهم «مرسو عنخ» الذي كان مدير ماليته، والواقع أن ما احتواه هذا القبر من الحجرات والتماثيل يكاد يضارع ما تفعله الملوك لنفسها؛ إذ عثر في قبره على ما لا يقل عن ١٢٠ تمثالًا معظمها هشمها الدهر والسرقة، وعدد حجراته لا تقل عن ٥٠ حجرة ولا نزاع في أن نفوذه كان عظيمًا في البلاط الملكي، ومقامه كبيرًا عند الملك نفسه يؤيد ذلك القصة التي وجدناها منقوشة على الحجر الجيري الصلب، وقد نصبت في واجهة جدار أحد سراديبه التي كان يوضع فيها تماثيله بمقبرته، وتفصيل ذلك أن الملك كان يقوم بافتتاح احتفال عيد خاص بجر سفينة الوجه البحري، وكان «رع ور» في ملابسه الرسمية، وتصادف أن كان بجوار سيده فلطمت عصا الفرعون ساق «رع ور» عفوًا، وعندما لاحظ الملك ذلك، ذعر واعتذر عما بدر منه نحو «رع ور» عن غير قصد، وقال له إنك أحب رجل عندي وأخص الناس بعطفي، ولكن الملك لم يكتف بذلك، بل أراد أن يعترف له أمام الناس، وأمام الخلف بمكانته عنده، فأمر بتدوين الحادث بفصه ونصه على حجر، وأن يوضع في قبر «رع ور» بجبانة الجيزة، وقد بقي هذا الأثر مختفيًا عن العالم حتى كشف حديثًا كما ذكرنا.

ولدينا وثيقة أخرى من عهد هذا الفرعون تدلنا على مقدار حنوه وتقديره لرجاله العاملين، ولكن مما يؤسف له جد الأسف أنها وجدت مهشمة ومشتتة؛ إذ يوجد جزء منها في «أبردين» والآخر في متحف القاهرة، والكل كان في مقبرة بسقارة لكبير المهندسين المعماريين، ورئيس القضاة الوزير «وشبتاح».

والواقع أن «وشبتاح» نفسه لم يقم هذا القبر، بل الذي بناه هو ابنه، وقد ذكر لنا السبب في ذلك العمل الذي لم يجر عليه العرف كثيرًا، ويتلخص في أن «وشبتاح» كان رجلًا مثقلًا بأعباء الأعمال التي كانت تتطلبها مهنه المتعددة أمام ملك البلاد، ومن أهمها أعمال العمارة التي كان يشرف عليها بنفسه، واتفق أنه كان منهمكا في بناء عمارة هامة، وتصادف أن جاء الملك وأسرته ذات يوم لفحص هذه العمارة ومشاهدتها، وقد سُرُّوا سرورًا عظيمًا بجمالها، وأُعجبوا أيَّما إعجاب أكثر مما يتصور، ولكن تأمل فقد أثنى عليه جلالته من أجل هذا. غير أن الإجهاد الذي بذله هذا الوزير أضناه حتى سقط

على غفلة مغشيًّا عليه، وذلك عندما كان الملك يتحدث إليه، وعلى أية حال فإن جلالته لاحظ أنه لا يصغي له فصاح قائلًا: إن «وشتاح» مريض، (وإن كان ذلك لم يذكر في المتن)، وعندما سمع أولاد الملك والأصدقاء الذين كانوا من رجال الحاشية استولى على قلوبهم الهلع أكثر مما يُتصور.

وفي الحال حُمل المهندس المعماري المصاب إلى قصر الملك الخاص، وعندئذ أحضر جلالته صندوق مخطوطات، ولا ريب أنها كانت أوراق بردي طيبة؛ لأن جلالته — جريًا على التقاليد الموروثة منذ أقدم العصور — كان مغرمًا بالطب وعلومه، ولكن لم يكن في وسع أحد إسعافه؛ لأن الحالة كانت على ما يظهر نزيفًا في المخ نتج عن الإجهاد في العمل. وعندئذ تركه الملك بقلب محزون ليصلي عليه في خلوته، وقد ذكروا أمام جلالته أنه مات، وكان قلب جلالته في شدة الحزن بدرجة لا مثيل لها، وقال جلالته أنه سيفعل كل شيء حسب رغبة «وشبتاح»، وعاد إلى حجرته الخاصة حيث صلى للإله «رع»، وعندما جاءت النهاية، أمر جلالته بأن يُصنع له تابوت من خشب الأبنوس المرصع، وهذا لم يصنع لواحد مثله من قبل. وكذلك أمر بتحنيطه أمام جلالته. أما الذي نقش هذا النص فهو ابنه الأكبر الذي كان يحمل لقب «الأول بعد الملك»، و«محامي الناس» (مرنثر نسوت) عندما كان يقبره بالجبانة، وقد أمر الملك بأن تكتب على قبره، وقد دعا له «الابن» جلالته بسبب ذلك، وشكر الإله كثيرًا (أي الملك).

وهناك قطعة من النقش نفهم منها أن الملك لم ينس خادمه المتوفى، لأنه حبس على مقبرة «وشبتاح» أوقافًا بالقرب من الهرم المسمى «سحورع يضيء».

حقًّا إن ما ذكرناه من النوادر في حياة هذا الفرعون مع كبار رجال دولته، لا يعد في أعين الكثيرين تاريخًا؛ إذ كان التاريخ في نظرهم لا يعرف إلا بالأرقام والحقائق الجافة، والمواقع الحربية، ولكن إذا نظرنا إلى هذه القصص من جهتها الاجتماعية والإنسانية، وما نقف منها عن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان منذ أقدم عصور تاريخ الإنسان المتحضر؛ أي منذ نحو ٤٠٠٠ سنة، فإن ذلك يكون له قيمة عظيمة في نظر المؤرخ الحقيقي أكثر من آلاف التواريخ ومن كتب مليئة بالحقائق الجافة، ومن أهم مرامي التاريخ أن يوقفنا على عهود من سبقنا من أجدادنا وغيرهم ممن عاشوا منذ آلاف السنين بعيدين عنا، وعلى علاقة بعضهم ببعض وحال مجتمعهم، وهل كانوا مثلنا من دم ولحم يشعرون ويتألمون، ويحبون ويخافون ويتعاطفون ويتراحمون عندما ما تدعو الطبيعة إلى ذلك رغم الفوارق الاجتماعية، وهل سيموتون في النهاية كما نموت، ومن أجل ذلك فإنا نعتبر

قص مثل هذه الذكريات التي نتصيدها من مجاهل الماضي، ونقتنصها من جوف أرض مصر مما يبرز لنا صورة واضحة للشعور الإنساني المتبادل بين الملك ورجال شعبه العاملين في هذه الأزمان السحيقة، وبين أفراد الشعب، وفي اعتقادي أن مثل هذه الصور الحية تعد أثمن خلاصة للتاريخ البشري، ولا عجب؛ فإن «نفر إر كا رع» قد ضرب المثل الأعلى في هذا المضمار وبخاصة في حسن المعاملة وطيب العلاقة بينه وبين كبار رجال دولته على مرأى من عامة الشعب في واقعتين سجلهما التاريخ، لم تكونا من وقائع حرب تقتل فيها النفوس بل وقائع رحمة وإخاء تؤثر فيها الأرواح.

وبعد وفاة «نفر إر كا رع» تولى الملك ثلاثة من الفراعنة، يظهر أنهم كانوا إخوة، غير أننا لا نعرف قرابتهم للفراعنة الثلاثة الذين سبقوهم، على أن الاثنين الأولين وهما «شبسس كا رع» و«نفرف رع». لا نعرف عنهما شيئًا. أما ثالثهم وهو «نوسر رع»، فيظهر أنه كان شخصية هامة في تاريخ الأسرة الخامسة، وقد حكم نحو ٣٠ عامًا، وقد عثر على معبده وهرمه في أبي صير ووجد منقوشًا على معبده أقدم رسم لاحتفال عيد «سد» الرسمي، وهو العيد الذي كان يقيمه الفرعون، إما عند بلوغه الثلاثين أو بعد حكمه بثلاثين عامًا، وذلك ليعيد إلى نفسه الشباب والقوة الحيوية، ولا يفوتنا أن نذكر أن من بين كهنة هرم هذا الملك الكاهن «تي» بسقارة، وقد عثر حديثًا على حجرة دفن ابنه ووجد فيها بعض أشياء قيمة، ومقبرة «تي» تمدنا بمعلومات قيمة جدًّا عن حياة هذا العصر من الوجهة الاجتماعية والدينية.

وتدل النقوش على أنه حارب في شبه جزيرة سينا حيث ترك لنا لوحة في وادي مغارة يظهر فيها ممثلًا وهو يضرب الآسيويين، وقد نقش عليها ما يأتي: «قاهر الآسيويين من كل الأقطار». على حين أن معبد هرمه في أبي صير كان محلًّى بالنقوش التي تشاهد عليها انتصاراته على اللوبين والأعداء من سوريا.

وقد حفظت لنا النقوش أسماء اثنتين من زوجاته؛ «ختي خوي» و«نبت»، وكذلك نعرف اثنتين من بناته وهما «خع مرر نبتي» و«مرتاتس».

ويعتقد بعض المؤرخين أن «فتاح حتب» مؤلف كتاب الحكم هو ابن «نوسر رع»، ولكن هذا الرأي لا يستند على أسانيد تاريخية، بل الواقع أن هناك ما ينفي ذلك.

وقد كشف عن بعض نقوش من عهد الملك في مقابر رجال عظماء بلاطه، تكشف لنا بعض نواحي خلقية للمصريين، ومعاملتهم للموتى؛ فمن بين هؤلاء «حتب حري أخت»،

وكان قاضيًا ونائب الملك في «نخن»، وقد نقل هذا القبر إلى ليدن كغيره من قبور الدولة القديمة، التي كانت مصلحة الآثار تبيعها بأبخس الأثمان لمتاحف العالم.[٣]

والنقوش التي على قبر هذا العظيم تدل على سلامة القلب التي بها يغري المارين على قبره ليعاملوه كما يحبون أن يعامَلوا هم فيقول: لقد أقمت هذا القبر من متاعي الحقيقي، ولم أستولِ على شيء للغير، فالذين سيقدمون إلي قربانًا فيه، فإني سأقوم نحوهم بالمثل، وسأدْعُو لهم الإله لذلك كثيرًا جدًّا، وسأفعل ذلك لهم مقابل الخبز والجعة، والملابس والعطور والحبوب بكميات عظيمة.

بعد ذلك نرى أن «حتب حري أخت» يظهر لنا تخوفه على قبره، فيكشف لنا القناع عن ناحية أخرى من نواحي الخُلق المصري في معاملة مباني موتاهم ومحتوياتها وما لها من الأوقاف. فنجده يري لزامًا عليه أن يعترف على نقوش مقبرته بأنه لم يسرق مقبرة أي إنسان، وكذلك يحذر كل مارٍّ من التعدي على قبره، أو أي شيء من محتوياته فيقول: لقد أقمت قبري هذا على المنحدر الغربي في مكان طاهر بكر (أي لم يستعمل من قبل)، ولم يكن فيه قبر أي إنسان، لأجل أن يحافظ على أملاك الذي قد رحل إلى قريته «الكا». أما من جهة دخول بعض الناس هذا القبر مدعين أنه عقار مأتمي لهم، أو إحداث أي شيء ضار به، فإنهم سيحاكمون من أجل ذلك أمام الإله العظيم، ولقد شيدت هذا القبر لأني رجل مبجل لدى الملك الذي أحضر لي تابوتًا، ولعمري، فإن هذا المتن يدلنا دلالة واضحة عن مبلغ تخوف المصري مدة حياته وما عساه أن يلحق بقبره بعد مماته، لأنه كان يرى بعينه ما يحدث لقبور الغير، وما كان عليه الخُلق المصري من هذه الناحية، ولقد بقي هذا الداء الدفين أهم ما يشكوا منه المصريون طوال تاريخ حياتهم، وقد تفننوا في الوصول إلى استئصال هذا الداء، ولكنه كان يزداد كلما ازدادت ثروة البلاد، كما سنرى فيما بعد.

[٣] نقلت مباني مقابر كاملة إلى لندن وبرلين وليدن وبروكسل وغيرها. كان بعضها يباع بعشرة جنيهات، وتحتوي على روائع الفن المصري.

(٤) الملك منكاوحر

جاء بعد «نوسر رع» الفرعون «منكاوحر»، وكل ما نعرفه عنه أنه أرسل حملة إلى شبه جزيرة سينا غير أن نقوشها وجدت مهشمة في معظمها، وما بقي منها هو: «حور منخو» ملك الوجه القبلي، والوجه البحري «منكاوحر» معطي الحياة والثبات ... ومما يؤسف له جد الأسف أن اسم القائد الذي كان على رأس هذه الحملة وجد ممحوًّا، ولذلك لم نتمكن من معرفة اسم أول قائد حملة في التاريخ المصري إلى هذه الجهات، تجاسر أن ينقش اسمه بجوار اسم الملك، وكانت هذه الميزة وقفا على الفراعنة، ولكن بعد عهد هذا الملك أصبح القواد ينقشون أسماءهم بجانب اسم الملك على اللوحة التذكارية التي كانت تقام في هذه الجهات تخليدًا لعملهم، ويوجد الآن في متحف اللوفر نقش غائر للملك «منكاوحر». عثر عليه في إحدى جدران مدفن السرابيوم بسقارة ومن المحتمل جدًّا أنه اغتصب من معبد هذا الملك الذي اختفى الآن جملة، والظاهر أنه لم يمكث على العرش أكثر من ثمانية أعوام.

(٥) الملك إسيسي

جاء بعد «منكا وحر» الملك «زد كا رع» (إسيسي) ولا نعرف صلة الرحم بينهما، والظاهر أن عصر «إسيسي» كان عصرًا حافلًا بالأعمال العظيمة، ففي عهده أرسل المستشار الملكي «با ور دد» إلى بلاد بنت «الصومال» القاصية، ومن هناك أحضر قزمًا من نوع نادر، وقد أدمج مع أقزام آخرين للقيام باحتفالات الرقص التي كانت تعمل للآلهة، وقد كان لهذا القزم الشرف كذلك بالرقص مع الأميرات ونساء القصر الملكي اللائي كن يقمن بوظائف الكاهنات في المحراب الملكي.

وعثر لهذا الملك في شبه جزيرة سينا على ما لا يقل عن أربعة نقوش في وادي مغارة. كتب على واحد منها: «ابن الشمس» مما يدل على التوغل في عبادة الشمس، وأن هذا اللقب أخذ يكثر استعماله، وأرسل كذلك حملة إلى بلاد النوبة كما يدل على ذلك النقش الذي وجد على صخرة «توماس»، ووجد كذلك نقش في وادي حمامات عليه اسم هذا الملك. أما النقش الذي يلفت النظر لهذا الفرعون فقد وجد في سينا، وقد جاء في مقدمته التاريخ كما كان يدون وقتها: «السنة التي تتلو المرة الرابعة لتعداد كل الحيوان، الكبير والصغير، عندما جعل الإله الحجر الثمين يوجد في المنجم السري، الذي هو لوحة بخط الإله نفسه،

«حور زد خعو»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري محبوب الإلهتين «زد خعو»، و«حور الذهبي» ... عاش أبديًّا. بعثة ملكية قام بها ضابط البعثة «ني عنخ خنتي خت» إلى المرتفع الذي يسمى الدهنج «ملخيت».» ويعد هذا الضابط أول قائد حملة معروف لنا نقش اسمه بجوار اسم الملك، وقد ظن بعض المؤرخين أن الحجر الثمين الذي يشير إليه في النقش هو حجر بلرم المشهور، ولكن هذا مجرد تخمين لا أساس له.

ومن الطريف أن «فتاح حتب» صاحب التعاليم المشهورة التي تعد أقدم ما وصل إلينا من حكم المصريين للآن، كان مربي الملك «إسيسي»، وقد أملى تعاليمه في شيخوخته وذلك لإعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته في البلاط، وسنذكر هنا مقدمة هذه التعاليم لنبرز للقارئ السمو بالأسلوب المنمق لهذا الشيخ المسن، والميل الخاص عند الموظف المصري في هذه العصور للمحافظة على توارث الوظيفة بقدر ما تسمح به الأحوال: هكذا تكلم إلى جلالة الملك «إسيسي». قد حلت الشيخوخة ونزل هذيانها، وامتلأت الأعضاء آلامًا وظهرت حالة الشيخوخة كأنها شيء جديد، وانمحت القوة أمام الهزال، وصمت الفم فلم ينطق، وغارت العينان وصُمَّت الآذان ... والقلب كثير النسيان غير ذكر الأمس، والعظام تتألم من كبر السن، والأنف كُتم وأصبح لا ينفس، والقيام والقعود سِيَّان؛ كلاهما مؤلم، والطب أصبح خبيثًا، وكل ذوق قد ولَّى، وما يفعله التقدم في السن مع الإنسان هو أن يصير حاله سيِّئًا في كل شيء، فمرني أن أصنع عكازًا لكبر السن، ودع ابني يأخذ مكاني لأعلمه أحاديث من يسمعون، وأفكار من سلفوا، وهم الذين خدموا السلف في الأزمان الخالية، ولَيْتهم يصنعون لك المثل حتى يُتَّقَى الشجار بين القوم، ويخدمك شاطئ النهر (أرض مصر). فقال جلالته: علِّمه أوَّلًا الحديث ... وليته يكون مثالًا لأولادي العظماء، وليت الطاعة تكون رائده، ويدرك كل فكره صواب من يتكلم معه، وليس هناك ولد يحرز الفهم من تلقاء نفسه.

ولا نزاع في أن الملك «إسيسي» قد أجاب مُلْتَمَس «فتاح حتب» بعد كل هذه التوسلات، والتضرعات المؤثرة، وبذلك نال بغيته وسُرَّ؛ لأن الذي كان أعظم ما تصبو إليه نفسه في حياته ككل مصري، أن ينصب في وظيفة حكومية يتقاضى منها مرتبًا ضخمًا ويتيه بها على أقرانه الذين لم يسعدهم الحظ بمثل ما أسعده.

ومن عظماء رجال هذا العصر الجديرين بالذكر «سنزم إيب»، وكان يشغل أعظم مناصب الدولة؛ إذ كان وزيرًا وكبير المعماريين، وكبير القضاة، والواقع أنه كان أعظم رجل في عهد هذا الفرعون، وقد دون على قبره القريب من هرم «خوفو» ما ناله من

الحظوة في عصر مليكه؛ منها خطاب كتبه بخط سيده، وسبب ذلك أن الملك طلب إلى «سنزم إيب» أن يعمل له تصميم بحيرة، فقام هذا المهندس بعمل تصميم بحيرة يبلغ طولها ١٢٠٠ ذراع، فَسُرَّ «إسيسي» من المشروع سرورًا عظيمًا، وأرسل له خطابًا يظهر فيه ارتياحه وإعجابه بكبير مهندسيه فيقول «سنزم إيب»:

> إن جلالة الملك كتب بأصبعه نفسه ليثني عليَّ لأني أنجزت كل عمل أمر بعمله جلالته بغاية الإتقان والكمال كما يريد قلب الملك أن يفعل له، وقد كتب له الملك: إن جلالتي قد اطلع على خطابك الذي أرسلته لتخبرني وأن كل شيء قد تم من جهة المبني الذي يسمى محبوبة من «إسيسي» وهو الذي بني لأجل قصر «إسيسي» الذي يسمى «نهبت» وطولها ٢٠٠ ذراع، وعرضها ٢٢١ ذراعًا حسب الأوامر التي أعطيتك إياها ... حقًّا إنك «سنزم إيب» (فرح القلب) عندما أدخلت الفرح على قلبي «إسيسي».

وفي هذا الخطاب تورية بين اسم «سنزم إيب» وفرح قلب الفرعون.

وقد ذكر ابنه على مقبرة والده، أن الملك قد خصص له أوقافًا أبدية، لأنه «سنزم إيب» وأنه أمر بإحضار تابوت له إلى مقبرته بالقرب من هرم «خوفو». والظاهر أن عظماء هذا العصر كان كل ما يحرصون عليه أن يدون بعدهم على قبورهم، التي كانوا يعتقدون ولو ظاهرًا أنها أبدية، ما كان ينالهم من الملوك من الحظوة، وما قاموا به من جلائل الأعمال، مع بعض المبالغة أحيانًا، وهذه الوثائق تكاد تكون مصدرنا الوحيد لتاريخ البلاد، وقد مكث «إسيسي» ما يقرب من ٢٨ سنة على أريكة البلاد.

(٦) الملك وناس

يُعتبر وناس في نظر التاريخ أنه آخر ملوك الأسرة الخامسة ومن أعظم ملوكها، وقد بقي قابضًا على صولجان الملك حوالي ثلاثين عامًا تقريبًا، وتنحصر شهرته في نظرنا في هرمه الذي بناه في سقارة وقد وجدت حجرة دفنه التي فيها تابوته، منقوشةً كل جدرانها بتعاويذ وصلوات دينية، كان الغرض منها أن تحفظ المتوفى في آخرته، وهذه هي أول مرة نجد حجرة الدفن في الأهرام مكتوبة بمتون دينية، وقد فتح «مسبرو» العالم الفرنسي باب هذا الهرم، وكذلك أبواب أهرام ملوك الأسرة السادسة، وهم «تيتي» و«بيبي الأول» و«مرن رع» و«بيبي الثاني»، وكلها في منطقة سقارة، وكان ذلك في عام ١٨٨١ أي بعد

وفاة «مريت باشا» مؤسس المتحف المصري، وهذه المتون المنقوشة في حجر دفن هذه الأهرام متشابهة وتحتوى على آلاف من الأسطر، وقد ترجمها «مسبرو» العالم الفرنسي. ثم أعاد ترجمة معظمها حديثًا العالم الألماني زيته، وتعد هذه المتون الآن الأساس الأكبر لمعرفة ديانة قدماء المصريين في عهد الدولة القديمة.

ولما جاء عصر الدولة الوسطى وجدنا متونًا مشابهة لها مكتوبة بالمداد الأسود على توابيت خشبية لِعلية القوم. أما في عصر الدولة الحديثة فقد وجدنا متونًا أكثر نموًّا وأغزر مادة مكتوبة على ورق بردي كان يوضع مع المتوفى في قبره، ويسميها علماء الآثار الآن بكتاب الموتى، وتقع في أكثر من ١٢٠ فصلًا، وكل هذه المتون في العصور المختلفة، أصبحت مصدرًا لا ينفذ لتعرف ديانة القوم، وأساطيرهم الدينية. ورغم أن هذه المتون قد وجدت لأول مرة في عهد الملك «وناس» إلا أنها تدل على أن أصلها يرجع إلى زمن سحيق في القدم، وربما ظهر ما يثبت ذلك في المستقبل [انظر الفصل الثاني عشر: مصادر المقاطعات في العهد الفرعوني وما بعده].

وفي العالم الماضي كشف عن المعبد الجنازي لهذا الملك ثم عن جزء من الطريق الموصل لمعبد الوادي، وفي الوقت نفسه كشف عن جزء من معبد الوادي، ويظهر أنه أعظم مساحة مما كنا نتصوره، ومن المدهش أن الطريق الذي يوصل بين المعبدين وجد بعض أجزاء مما كشف منه سليمة نوعًا ما، وقد كشفت لنا عن صفحة جديدة في تاريخ المعابد المصرية في عهد الدولة القديمة، ألقت شعاعًا من النور على بعض الحقائق الجنازية والاجتماعية كانت مجهولة لدينا، فقد وجدنا أوَّلًا أن هذا الطريق كان مبنيًّا بالحجر الجيري الأبيض، ومسقوفًا كذلك بقطع ضخمة من نفس الحجر فيها منافذ لإضاءة الطريق، وهذا السقف مزين بالنجوم لتمثل فيه السماء، أما جانبَا الطريق فقد نقشَا بمناظر غاية في الإتقان، بعضها جنازي، والبعض الآخر يمثل الحياة العامة، وحياة البلاط؛ فنجد مثلًا حاملي القربان يذهبون نحو الهرم، وآلهة مختلفين يباركون الملك، ونجد مناظر تمثل الملك وهو يتقبل القربان، وأخرى وهو يحارب الأعداء ويقتلهم، كما نشاهد رجال البلاط آتين في خضوع للملك كل يقدم طاعته، بينما يصطف رجال الجيش أمامه كل يحمل لقبه، وفي جهة أخرى نشاهد جنود الملك يقتلون الأعداء من البدو بحرابهم ومُدَاهم، وهناك نرى مناظر الزرع والحصاد ونباتات كل فصل، وجني الشهد وتوالد الحيوان، وفي أحد المناظر نشاهد صيد حيوان الصحراء من كافة أنواع الغزلان والأسود، من بينهما الزرافة التي لم يكن قد عثر على رسمها في نقوش الدولة

القديمة. كل هذا كان مهيأ لمنفعة الفرعون، وكذلك نشاهد النيل وفيه كل أنواع الأسماك، والحقول وما فيها من طيور.

ثم نشاهد بعد ذلك مناظر قد عُني الفرعون بها خاصة ليظهر لأخلافه كيف كان يُعنى بتشييد معبديه؛ إذ نشاهد منظرًا لبعض السفن المحملة بالأعمدة الجرانيتية وقطع الكرانيش التي كانت تستعمل في تشييد المعبد الجنازي، وقد كتب عليها: «أعمدة من الجرانيت أحضرت من أسوان»، ومن المدهش أن هذه الرسوم تدل دلالة واضحة على أن هذه الأعمدة والكرانيش قد صنعت في أسوان ثم وضعت على زحافات، وربطت، ثم وضعت في السفن لتكون جاهزة لإقامتها في أماكنها بمجرد وصولها؛ أي إنه كان يوجد في أسوان مدارس صناعات لهذا الغرض، ولم يشهد التاريخ منظرًا قبل هذا ولا بعده، اللهم إلا مسلة الملكة «حتشبسوت» التي حملت من أسوان، غير أنها لم تكن قد تم نقشها، يضاف إلى ذلك أننا عثرنا على صور مراكب منقوشة على جدران هذا الطريق أعظم حجمًا من السفن النيلية، وقد وجد فيها قوم آسيويون شبه أسرى، وهذه المراكب بلا شك آتية من بلاد سوريا مما يدل على العلاقة بين البلدين في هذا العصر، بل وسيطرة مصر عليها بعض الشيء، وآخر منظر كشفنا عنه هو منظر للسوق المصري وتبادل السلع وصنع الذهب ووزنه، وقد كشف حديثًا عن مقبرة زوجته «نبت»، ومقبرة لأحد أولاده المسمى «وناس عنخ».

(٧) ظهور عبادة الإله «رع» في الأسرة الخامسة

لاحظنا أنه منذ عهد الفرعون «شبسكاف» قامت نهضة لمقاومة عبادة إله الشمس «رع» الذي أخذ في النهوض والظهور منذ أواسط الأسرة الرابعة، ولكن تدل الأحوال على أن نجم هذا الإله أخذ يعلو في عهد الأسرة الخامسة ثانية، وأخذت عبادته تنتشر حتى أصبحت عبادة الدولة الرسمية، على أن إله الشمس «رع» الذي يحكم العالم لم يكن يُعبد في مصر من قبل إلا عندما كان يمثل في الإله «آتوم» معبود بلدة عين شمس المحلي، ولكن مصر قد أصبحت الآن أمة عظيمة متحضرة تعتقد في نفسها أنها مركز العالم، وأن أمم المعمورة الأخرى ليس لها أية أهمية، وقد كان كل هم الإله «رع» حاكم العالم أن يهتم بالبلاد المصرية وفرعونها، وقد أخذ الآن يحل محل الإله «حور» فأصبح إله الدولة والمسيطر على كل البلاد، وصارت الآلهة المحلية للمقاطعات كلها دونه وتحت سلطانه، كما كانت حكام المقاطعات تدين لسلطان الفرعون وإرادته، وقد أدَّى ذلك إلى القيام

بواجب جديد نحوه كان لا بد للفرعون وشعبه من القيام به، وهو أن يعترفوا بفضل الإله «رع» وأن يظهروا هذا ببناء المعابد وتقديم القرابين، وقد كان أول من ضرب المثل لذلك كما ذكرنا الفرعون «وسركاف»، ثم قفَّاه في هذا السبيل مَن خَلَفَه، وبعد ذلك أحدث الفرعون «كاكاي» ثالث ملوك الأسرة الخامسة نظامًا جديدًا نحو تمجيد إله الشمس والاعتراف به، وذلك أنه أضاف لاسمه الملكي اسم «نفر إر كا رع» ومنه نلاحظ أنه أراد أن ينسب لنفسه صفة من صفات الإله «رع»؛ «جمال قرين رع»، وقد أصبح هذا الاسم هو الذي يذكر في كل نقوشه تقريبًا، وقد حذا حذوه كل أخلافه دون استثناء في خلال هذه الأسرة، ولا يخفى أنه منذ الأسرة الرابعة كان يسمى الفرعون «ابن الشمس»، وذلك طبعًا في أحوال فردية.

غير أن هذه التسمية أصبحت أكثر استعمالًا في عهد الأسرة الخامسة، ولكن في خلال الدولة الوسطى منذ عهد الأسرة الإهناسية والأسرة الحادية عشرة أخذ هذا اللقب يدخل تدريجًا في السجلات الملكية، ولقد شاهدنا الفرعون «نوسر رع» عندما أهدى معبده للإله «رع»، لم يذكر بالتخصيص أن الإله «رع» هو والده كما كان الحال مع الفراعنة الذين جاءوا فيما بعد، ولم ينسوا أن يذكروا ذلك، ولكن من جهة أخرى نشاهد أن كل فرعون كان بمجرد اعتلائه عرش الملك يقوم في الحال بإقامة معبد جديد للشمس، وذلك مما يدل على أنه كانت هناك علاقة شخصية تربط الفرعون بالإله «رع»، والواقع أن الديانة في عهد الأسرة الجديدة كان ينظر إليها نظرة مخالفة لما كانت عليه من قبل؛ إذ كان أهم واجب على الفرعون أن يسهر على العناية بتمجيدها، ولا أدل على ذلك من المرسوم الذي أصدره الملك «نفر إر كا رع» وحفظ في «العرابة»، وهذا المرسوم خاص بكل الدولة، وفيه كما ذكرنا آنفًا يحرِّم الفرعون فرض أي سخرة على الكهنة وفلاحي أي معبد، أو أن ينتزعوا شيئًا من الضِّياع التابعة للمعابد. ولا نزاع في أن قصة ورقة «وستكار» خرافة، ولكن إذا كانت تجعل ولادة ثلاثة الملوك الأُول من الأسرة الخامسة من زوجة كاهن للإله «رع»، وإذا كان «رع» نفسه قد أنجبهم حتى يعتلوا عرش ملك مصر، ويبنوا المعابد للإله ويقربوا الضحايا، ويغدوا موائد القربان بالخيرات التي منها يشرب الإله، ويحبسوا عليها الأوقاف الطائلة، فإنا لا نشك في أن هذه القصة تعتمد على أصل تاريخي، هذا إلى أن الملك «وسركاف» كما ذكرنا في حينه كان كاهنًا أعظم للإله «رع» في عين شمس قبل توليه العرش.

والحق أن العبادة الجديدة نشأت في هذه المدينة، ومنها خرجت عبادة «رع» وأصبحت مهد الحياة الدينية في كل جهات القطر، وكان مثل معابد الإله «رع» في الأسرة

الخامسة مثل الأهرام تقام على حافة الهضبة الصحراوية الغربية خلف المدن الملكية في منطقة «منف». وترتيب بناء هذه المعابد في مجموعه يذكرنا بالتصميم الذي كان متبعًا في المعابد الجنازية في عهد الأسرة الرابعة، فكان يخرج من المقر الفرعوني طريق منحدر بعض الشيء ينتهي في طرفيه بأروقة توصل إلى المعبد نفسه، وهو مقام على تلعة ممهدة رقعتها ومثبتة بالأتربة المنقولة، وكانت تقام في وسط ردهة عظيمة غير مسقوفة مسلة ضخمة يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠ مترًا على قاعدة تشبه قمع الخياط، وهذه المسلة كانت مبنية من كتل من الحجر الجيري المرصوص بعضه فوق بعض، وأمام هذه المسلة كانت تقام مائدة قربان أو مذبح عظيم الحجم منفرد من المرمر، وعلى جوانب هذه الردهة كانت توجد مخازن المعبد، وطراز هذا الهيكل يختلف عن كل المعابد المصرية؛ إذ لا يحتوي على أي تمثال لإله، ولذلك لم يكن فيه أي «ناووس» أو محراب للتعبد؛ وذلك لأن الإله الذي كان يُعبد فيه لم يكن مقرُّه على الأرض، ولم يتقمص أي حيوان، أو تمثال، ولكنه يسطع في السماء كل يوم بكل جلاله وبهائه، أما المسلة التي يحتمل أنها كانت في الأصل قطعة حجر منصوبة، فليست إلا رمزًا قديمًا لعبادة الشمس القديمة، ومن ملحقات هذا الهيكل سفينتا الشمس، وهما اللتان يسبح عليهما الإله في السماء. وقد كشفت سفن من هذا النوع منذ الأسر الأولى، ففي معبد «خفرع» كشفت اثنتان للشمس؛ واحدة للسباحة من الشرق للغرب، وأخرى من الغرب للشرق، والثانية مغطاة بالأحجار، لأنها تسبح ليلًا ومفروض أنها لا ترى، وكذلك كشف في العام الماضي عن سفينتين لمعبد الملك «خوفو» ويبلغ طول الواحدة منها أكثر من خمسين مترًا — كما سبق الكلام عن ذلك — مما يدل على أن عبادة الشمس كانت شائعة في الأسرة الرابعة تمامًا، والطريق المنحدر الذي يبتدئ من المقر الملكي عبارة عن طريق مغطى ينتهي عند المرتفع ذي القاعدة المكعبة، ومن هذا المكان يخرج الفرعون من الظلمات إلى نور النهار، محيِّيًا الإله الذي يبزغ من الشرق منذ مطلع الفجر ومعه جم غفير من القوم يحملون أمامه القربان إلى المائدة.

وفي هيكل الفرعون «نوسر رع» نجد على جدران دهليز معبده، وعلى جدران حجرة متصلة به نقوشًا بارزة ذات جمال خارق لحد المألوف، وهي تمثل إما احتفال تأسيس الهيكل والعيد الثلاثيني، أو تمثل نشاط إله الشمس الخالق ما على سطح الأرض، مثل حياة النبات، ودنيا الحيوان، وذلك في خلال فصول السنة الثلاثة، وقد عثر في العام الماضي على مثل هذا المنظر في طريق معبد الملك «وناس» في سقارة، ومن ذلك يتضح لنا

أن هياكل الشمس هذه لم تُبْنَ عبثًا، بل لتحقيق فكرة دينية عظيمة. ولا شك في أن هذه الفكرة قد استعير بعضها من المباني التي سبقتها لتعبر عن عناصر قديمة، فمثلًا نجد أن هذه الأروقة، والدهليز هي نفسها التي توجد في المعابد الجنازية للأهرام. أما مناظر الفصول فقد كانت بلا نزاع على جدران معابد الأهرام كذلك، ولكن لم يعثر عليها لأن كل مباني معابد الأسرة الرابعة قد اندثرت، ولم يبقَ منها إلا أشياء طفيفة جدًّا، وحقيقة كانت فكرة هذه الهياكل وتصميمها فذة وليس لها نظير في المباني الدينية في كل عصور التاريخ المصري.

ولكن إذا نظرنا إلى ظواهر الأمور وجدنا أن عبادة «رع» التي أدخلها ملوك الأسرة الخامسة قد أضافت إلهًا جديدًا للآلهة القديمة فحسب؛ وذلك لأن الفراعنة كانوا يحتفلون بعبادة الآلهة الآخرين بنفس الحماس الذي أظهروه لـ «رع» فكانوا يحبسون عليها القرابين والأراضي كما كانوا يفعلون للإله الجديد، وقد كان يعبد كذلك في هياكل «رع» مثيل له قد اختلط معه فيما بعد، وأعني بذلك إله النور الذي يطلق عليه «حور الأفق» (حور أختي)، وكذلك إلهة السماء «حتحور»، وقد كان هذا هو الفارق الرئيسي بين عبادة «رع» في هذا العصر، وبين عبادة «إخناتون» التي أسست فيما بعد، ومع كل ذلك فإنه يجب أن نتعرف في نفس عبادة «رع» خاصيات تجعلها مغايرة تمامًا لعبادة الآلهة الأخرى، وذلك أن في عبادة «رع» عنصرًا خارقًا للطبيعة؛ أي إن هناك فكرة عالية عن اللاهوت ظهرت في حياة المصريين. هذا إلى أنه في الوقت نفسه نجد أن فكرة الملكية المقدسة التي فرضت على الشعب في عهد الأسرة الرابعة، وجدت ما يناهضها في عبادة «رع»، فإذا كان واجب الفرعون منذ اعتلائه عرش الملك في عهد الأسرة الرابعة هو إقامة مقبرة ضخمة، فإنه منذ الأسرة الخامسة أصبح عليه واجب آخر لا يقل عن الأول في صعوبته وخطورته، وذلك هو بناء هيكل جديد لعبادة إله الشمس. على أن تأثير هذه الفكرة الجديدة يمكن ملاحظته تمامًا عندما بدأ آخر ملكين من ملوك هذه الأسرة يتنحيان عن بناء معابد جديدة للإله «رع»، ومنذ ذلك العهد أخذت عبادة «رع» تتضاءل كما سنرى أمام عبادة الآلهة الأخرى «وبخاصة الإله فتاح»، وهي الآلهة التي كانت عبادتها راسخة في ضمائر عامة الشعب، وليس شك في أن هؤلاء الآلهة قد خضعوا لنفوذ الإله «رع» خلال الأسرة الخامسة، كما خضعوا من قبل لعبادة الإله «آتوم» في عين شمس، وكان رجال علماء الدين، والمهذبون من أفراد الشعب يعتقدون أن الآلهة المحلية ليس لها أي نفوذ أو سلطان إلا لأنها مظهر من مظاهر الإله «رع». أما الإلهات فكانت

في اعتقادهم إلهات السماء، أو بعبارة أخرى أمهات للشمس، وكذلك كان الحال في فكرة الملكية، فإذا كان الملك يعتبر أنه ابن ملك العالم «الشمس»، فإننا نجد سلطانه من هذه الناحية يزداد، ولكن من جهة أخرى نجد شخصيته أصبحت خاضعة لفكرة دينية أكثر سموًّا، فلم يصبح موقف الفرعون متساويًا مع والده «رع» في أنهما يستمدان حقوقهما من مصدر واحد، (وهذا كان في الواقع موقف الملك بين الآلهة؛ إذ كان يعتبر «حور» الحي المتربع على العرش)، بل إن الفرعون أعلن على العكس طاعته وخضوعه وتنفيذه لإرادة والده «رع»، وهذا هو السر في أنه لم يعد يطلق عليه اسم «الإله العظيم» فيما بعد كما كان ينادى في عهد الدولة القديمة، بل أصبح لا ينادى إلا بلقب «الإله الطيب».